

الفصل الحادى عشر

تداعى الخواطر وترباطها^(١)

تجرى الخواطر فى الذهن ، بحيث يشعر بها صاحبها ، أو تهبط إلى هامش الشعور ، أو تصدر عن اللاشعور ، وهى فى جميع هذه الحالات تتصل بعضها ببعض ويتبع أحدها الآخر طبقاً لنظام وترتيب ، فالخواطر النفسية لا تظهر فى مجرى الشعور عفواً دون نظام أو ترتيب ، بل لوجود حالة نفسية تتبعها حالة نفسية أخرى بالذات ، سبب من الأسباب . فورود الخواطر فى الذهن يتلو بعضها بعضاً يسمى تداعى الخواطر .

فهذا رجل قد جلس إلى مقهى فى الطريق يرقب المارة ، وهو يرى السيارات تجرى والناس يمشون ، والباعة ينادون على بضاعتهم ، وإذا بطفل يعدو عابراً الطريق قد ارتبك فى حركته وأقبلت عليه سيارة أوشكت أن تدهمه ، وأدرك صاحبنا الخطر المحيق بالطفل ، فتأثر وخشى عليه من الاصطدام ، ومال إلى مساعدته ، ولكنه خاف أن يدهم مثله فتردد ، ثم عاد ضميره يؤنبه ، ودفعتته المرءة أن يقوم فى سرعة لإتقاده ، فى هذه اللحظة تصور أولاده لو كانوا فى هذه الحالة ، وتصور نفسه لو دهمته السيارة وأودت بحياته .

هذا التتابع فى الحالات النفسية هو ما يسمى التداعى ، فصورة الطفل « تدعو » فى ذهن ذلك الرجل صورة أولاده ، وإدراك الخطر يدعو إلى الخوف ، والخوف يدعو إلى النكوص ... وهكذا .

وإذا كانت الحالة النفسية تدعو حالة أخرى ، فذلك لأن بين الحالتين صلة ورابطة ، وقد تكون الصلة الموجودة بين الأشياء ضرورية ، مستمدة من طبيعة الشيء مثل صلة العلة بالمعلول ، والوسيلة بالغاية ، والجزء بالكل الخ مثل الصلة بين المطر والسحاب ، وبين النهار وطلوع الشمس ، وبين الشعور بالخطر والخوف ، والإحساس بالعطش وطلب الماء . فالترابط هو الصلة التي تربط الحالات النفسية بعضها ببعض ، والتداعى هو ميل الشخص إلى إيراد الخواطر متتالية الواحد بعد الآخر . لهذا السبب كان الشيء الواحد مصدراً لإثارة خواطر مختلفة في ذهن أشخاص كثيرين . فلو أن شخصاً آخر شهد ذلك المنظر السابق فإن الخواطر تجرى في ذهنه على نسق يختلف عن الأول .

ويحدث التداعى بين فكرة وفكرة مثل التداعى بين لفظ نهر ولفظ النيل أو بين صورة صديقك الفوتوغرافية والشخص نفسه . وقد يحدث بين حالة وجدانية وأخرى مثلها ، فالاستغراب من شيء قد يدعو إلى الإعجاب به ، أو بين حركة وحركة ، كما يدعو إمساكك بالقلم أن تكتب به ؟

وقد تنتج هيئة الجسم الحالة الوجدانية التي تصاحبها ، فالسجود والركوع يحدثان عاطفة دينية ، أو العكس تؤدي الحالة الوجدانية إلى الحركة ، فالخشوع الدينى يدعو الشخص إلى الركوع ، كذلك يكفى أن ترسم على وجهك ملامح الحزن ، حتى تجد نفسك حزينا بالفعل ، وقد رأينا ذلك واضحاً عند الكلام على الانفعالات .

قوانين التداعي الأساسية :

سنجى الآن تجربة تعرف باسم « التداعي المقيد » ، وهي أن يضع المجرب في الجدول الآتى الكلمة التى ترد فى ذهنه مباشرة بعد قراءة الكلمة الموضوعه ، مثال ذلك إذا قرأت كلمة (نهر) فإن ما يرد فى ذهنى بعدها مثلاً هي كلمة (النيل) . لا تتوقف ولا تتردد واذكر أول كلمه ترد فى ذهنك .

غاندى	ترعة
الجامع	مدرسة
ليل	أبيض
طفل	موز
شارع	غنى
قيص	تمثال
يابس	الهند
إمرأة	غواصة
قطن	سعد
شهر	كبير

إذا بحثنا الكلمات التى نحصل عليها من هذه التجربة ، نجد أن هناك رابطة تصل بين كل كلمتين . هذه الروابط الأساسية هي التلازم والتشابه والتضاد . وقد وصل القدماء إلى كشف هذه القوانين العقلية ووصفها « أرسطو » على النحو الذى نذكره الآن .

١ - التلازم .

إن وقوع حالتين نفسييتين متلازمتين باستمرار فى مجرى الشعور ، يكون سبباً فى

تتابعهما في الظهور ، إذا ظهرت إحداها . وقد يكون هذا التلازم لفظياً مثل نهر النيل والجامع الأزهر ، فإننا تعودنا سماع الكلمتين متجاورتين باستمرار . وقد يكون التلازم في الزمان مثل الظهر والعصر . وقد يقع التلازم في المكافئ مثل مكة والمدينة .

٢ — التشابه .

من الأسباب القوية التي تربط الأشياء بعضها ببعض تماثلها من أى ناحية من النواحي ، كالتشابه في الشكل أو اللون أو المعنى . فالصورة تدعو إلى التفكير في صاحبها ، ورؤيتك الابن تبعث إلى التفكير في والده وذلك لمجرد وجود تشابه في الحلقة أو في نبرات الصوت . ونلاحظ أنه كلما أخذ التشابه يضعف ، قل الميل إلى التداعي أيضاً .

٣ — التضاد .

كذلك الخاطر قد يدعو في الذهن ما يضاده ، فإذا خطر لك الغنى استرسلت إلى الفقر ، أو الليل يدعو إلى النهار ، وفكرة البياض تدعو إلى فكرة السواد ، أو كالمسافر في البحر ينظر إلى الماء فيخطر في ذهنه اليابسة لتضاد الفكرتين .

التلازم والتشابه والتضاد من القوانين الأولية التي نبه إليها أفلاطون وأرسطو قديماً ، وقد وجهت الاعتراضات إلى قصر الحياة العقلية على هذه القوانين الثلاثة . وقيل إنه يجب أن تضاف إليها الارتباطات المنطقية ، أى الصلة الضرورية بين المعاني أو بين الأشياء ، مثل الترابط بين المبدأ والنتيجة ، العلة والمعلول ، الوسيلة والغاية ، الجنس والنوع . فالطبيب حين يشاهد على المريض أعراضاً خاصة يتجه ذهنه إلى نوع من المرض ، فهذه علاقة العلة بالمعلول ، ثم يفكر في أسلوب من العلاج ، والعلاقة بين العلاج والشفاء هي علاقة وسيلة بغاية . والرياضي حين يلاحظ

تساوى زاويتين في مثلثين محصورتين بين ضلعين متساويين في كل منهما ، يتجه ذهنه إلى انطباقهما ، وهذه علاقة النتيجة بالمبدأ .

القوانين الثانوية :

هناك قوانين أخرى ثانوية هي التي تدعو إلى تسلسل المعاني والخواطر في الذهن ، ويحسن إجراء التجربة الآتية لتستبين منها هذه القواعد ، وهذه التجربة تسمى « التداعى المطلق » . والفرق بينها وبين التداعى المقيد ، أن الأخيرة كانت كل كلمة مقيدة بكلمة تسبقها ، فتلزمك أن تبدأ بها في التفكير ؛ أما في التداعى المطلق فإنك تبدأ بكلمة واحدة ثم تترك نفسك لخواطرك تنساب فيها ، بعد أن تستمد بدايتها من هذا الأصل . وينبغي أن ينتعد المحرب عن جميع المؤثرات وأن يجلس في مكان هادئ ، ثم يطلق لفكره العنان ولا يحاول أن يوقف مجراه . وقد أجريت التجربة التالية على أحد الأشخاص في يوم الثلاثاء الذي يوافق عشرين من شهر أكتوبر سنة ألف وتسعمائة وست وثلاثين بالقاهرة وكانت النتيجة كالآتي : -

شارع - طريق - قهوة - محمد - حسين - سينما - تمثيل -
سهر - معاهدة - محاففة - استقلال - جيش - حرب - خوف -
موت - غلاء - فقر - غنى - راحة - موسيقى - غناء - أناشيد
إذا درسنا هذه الكلمات نجد فيها مجموعات متصلة مثل (سينما - تمثيل -
سهر) ومجموعة أخرى مثل (معاهدة - محاففة - استقلال - جيش) ومجموعة
ثالثة هي (حرب - خوف - موت) ومجموعة رابعة هي (غلاء - فقر -
غنى) ومجموعة خامسة هي (راحة - موسيقى - غناء - نشيد) .

والصلة بين هذه المجموعات ، وبين كلمات هذه المجموعات بعضها وبعض ،
ترجع في كثير من الأحيان إلى قوانين التداعى الأساسية التي ذكرناها ، كما هو
واضح . ولكن هناك أسباباً أخرى هي التي تبعث الإنسان إلى ذكر بعض
المعاني ، وهي التي توجهه وجهة معينة ، مثال ذلك ذكر « المعاهدة » فهو نتيجة
الحوادث السياسية الشاغلة للأذهان في مصر وقت إجراء التجربة ، وهي معاهدة
التحالف والصداقة بين مصر وإنجلترا . وأهم هذه القوانين أربعة :

١ - الشروع :

فهناك أشياء تشيع في بعض الأوقات ، وتصبح حديث المجالس ، ومضغة
الأفواه ، كالأمر السياسي التي تجرى في وقتها ، والاختراعات الحديثة التي تبدأ
في الذبوع والانتشار مثل « الراديو » في مبدأ أمره . وقد يصدر أحد كبار
الكتاب مؤلفاً جديداً فيصبح مصدر مناقشة أدبية بين أهل العلم مدة من
الزمان . هذه الأمور الشائعة التي تتردد على ألسنتنا ونذكرها في كل وقت وفي
كل زمان ، توجه الذهن وتبعث الخواطر التي تجرى فيه .

٢ - الجدة :

والجدة مصدر جديد . وتقصد بالجدّة أن الحادث الجديد يلفت النظر
ويجذب الانتباه ، ويقطع سلسلة التداعى الماضية ، ويكون بداية سلسلة جديدة .
فإذا كنت تقرأ في جريدة ، ثم وقع بصرك على نبأ موت صديق - وهذا هو
النبأ الجديد - فإنك تبدأ في سلسلة من التداعى مصدرها ذلك الخبر ؛ وإذا
كنت في حجرة مقفلة ، تجلس فيها منفرداً تفكر في هدوء ، ثم فتح باب الغرفة
ودخل عليك منه شخص ، فإنك تقطع سلسلة تفكيرك الهادئة ، وتشرع في
التفكير بشكل جديد .

٣ - الميل الغالب :

كل شخص مركب من مزيج من الميول والأهواء ، هي التي توجهه وتسيره في الحياة ، هذه الميول تشغل نفس صاحبها ، وتملك عليه كل تفكيره ، كما ذكرنا عند الكلام على العاطفة قلنا إن البخيل تدور حياته على المال والعالم على العلم . فالشخص الذي يميل إلى ارتياد دور الخيالة تجد أحاديثه مملوءة بها ، والعالم لا ينفك عن التفكير في العلم .

٤ - الاتجاه العقلي :

ونعني بذلك حالة العقل التي يكون عليها في الوقت الذي تتسلسل فيه الحواطر . فالحقيقة أن الإنسان لا يظل على حالة واحدة طول الحياة ، بل يتنقل في حالات شتى متباينة ، فساعة يكون منقبضاً ، وساعة منشرحاً ، وتجده متشائماً حيناً ، ومتفائلاً حيناً آخر ، ويكون تبعاً في وقت من الأوقات ، مستريحاً في وقت آخر ، ويكون هادئاً رزيناً زماناً ، وناثر الأعصاب ينظر إلى العالم بمنظار أسود زماناً آخر . هذه الحالة النفسية التي تسود الإنسان ساعة التداعي ، تؤثر فيه ، ويخرج تفكيره مصطبغاً بذلك اللون .

قيمة التداعي :

تداعي المعاني أساس أغلب العمليات النفسية . فقد رأينا أن معظم سلوك الإنسان أعمال آلية ، يكتسبها بالتعلم خلال الحياة . والتعلم الحركي مثلاً يفرض تعدد كثير من الحركات تتصل ببعض عن طريق الروابط التي ذكرناها . بل حياة الحيوان تقوم على قوانين الترابط ، وقد أمكن العلماء أن يصلوا بتدريب الحيوان إلى تحقيق هذه النظرية . فالكلب الذي يسيل لعابه حين يسمع دقات الناقوس

قد تعلم أن يربط في ذهنه صوت الناقوس بحضور الطعام ، فأصبح يكفى أن يسمع الصوت حتى يسيل لعابه . فالأفعال المنعكسة المعدلة تقوم على الترابط .

وعملية التذكر تقوم على أساس الترابط كما سنذكر فيما بعد . فالإنسان حين يريد أن يتذكر اسم صديق نسيه ، يستحضر في ذهنه صورته أو صورة منزله أو أسماء أصدقائه الذين يتشابهون معه في مخارج الحروف .

والتداعي أساس كثير من المعتقدات الفاسدة التي لاتستند إلى حقيقة ، فالتشاؤم من العدد ١٣ نشأ من أن أناساً — كما يقولون — كانوا جلوساً إلى مائدة واحدة وعددهم ثلاثة عشر ، فحصل أن أصاب بعضهم نكبات محزنة ، فاقترن حصول النكبات بالعدد ١٣ ، والحقيقة أن حصولها لم يكن نتيجة ذلك العدد .

وتستطيع أن تستغل قوانين التداعي في قراءة الفكر ، لأنك عرفت أن الخواطر تجرى في الذهن بنظام خاص طبقاً لقوانين معروفة ، فإذا أضفت إلى ذلك معرفتك بميول الشخص الذي تحدثه ، والحالة النفسية التي تسوده ، والحوادث الطارئة التي تحصل في ذلك الوقت ، وتكون مثيرة لاهتمامه ، استطعت بسهولة أن تستنتج ما يدور في خلده من فكر .

والتداعي كذلك أساس التحليل النفساني الذي نعالج به كثيراً من الأمراض العصبية ، وكثير من هذه الأمراض نتيجة العقد النفسية المكبوتة . ولعلك تتساءل كيف نستطيع الوصول إلى هذه العقد المكبوتة الخفية التي يضع عليها المريض ستاراً كثيفاً يمنع من ظهورها ؟ ذلك أن الرقابة التي يضعها العقل لإخفاء هذه العقد في اللاشعور تجوز عليها الخيل ، فتظهر لنا آثاراً من هذه العقد في صور رمزية ، وفي فلتات اللسان . فالعالم الماهر هو الذي يفتن إلى هذه الرموز أو الفلتات ، ويمسك بها أول الخيط الذي يستدل به على تلك العقد النفسية .